مجلة رؤى في الآداب والعلوم الإنسانية
2020/09 رقم الإيداع الوطني * ISSN/2716-8417
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/725

دلالات الرمز في قصيدة مابين معترك الأحداق لابن الفارض

The symbol's connotations in a poem between the battle of the ahadaq for Ibn El faredh

المعطيات	المؤلف الأول	المؤلف الثاني	المؤلف الثالث
الاسم واللقب	طيب حمايد		
الدرجة العلمية	دكتوراه		
مخبر الانتماء	/		
جامعة الانتماء	الجيلالي اليابس سيدي بلعباس		
البلد	الجزائر		
البريد الإلكتروني	tayebhemaid@gmail.com		
الاسم واللقب والبريد الإلكتروني للمؤلف المرسل	طيب حمايد tayebhemaid@gmail.com		

الملخص باللغة العربية	
الملخص	الرمز لبنة أساس في هندسة القصيدة الصوفية وبنيتها التركيبية ، حاولنا في هذا البحث تسليط الضوء على قصيدة - مابين معترك الأحداق - لابن الفارض وتفكيك رموزها على غرار رمز المرأة ، الخمرة والطبيعة . بعد قراءتنا لهذه القصيدة تتبين لنا دلالات رمز المرأة في الحب الإلهي ، الخمرة فناء في حضرة الألوهية أما الطبيعة فهي مظهر من مظاهر الجمال .
الكلمات المفتاحية:	الرمز ؛ ابن الفارض ، المرأة ؛ الخمرة ؛ الطبيعة .

الملخص باللغة الأجنبية	
ABSTRACT:	The symbol is a building block in the geometry and compositional structure of the Sufi poem, and in this research we tried to highlight a poem - between the battle of the ahadaq - of Ibn El faredh and to dismantle its symbols along the lines of the symbol of women, winery and nature. After reading this poem, we see the connotations of the symbol of women in divine love, winery is a yard in the presence of divinity, but nature is a manifestation of beauty.

Key Words:	the symbol ; Ibn El faredh ; women ; winry ; nature .

مقدمة:

اختص الشعر الصوفي بكتلة من الرموز ميزته عن الألوان الشعرية الأخرى ، خاصة وأنه استند على الغموض كمرجعية في نظم القصائد ، ما جعل المتلقي بين مد وجزر لفك شفرات النص خاصة في ظل التطابق من حيث التصوير بين القصيدة الصوفية ، الغزلية والخمرية وهذا يعكس اشكالية البحث : ما هي دلالات الرمز في قصيدة مابين معترك الأحداق لابن الفارض ؟

حيث حاولنا تسليط الضوء على ملابسات مستويات الرمز وفق المنهج الوصفي التحليلي وقراءة إشاراته المتقوقعة في غموض دلالاته التي يبلور هندسة القصيدة الصوفية ،حيث تتجلى دلالات الرمز ومستوياته في:

1 - رمز المرأة :

قصيدة مابين معترك الأحداق حافلة برمز المرأة التي تحمل دلالات الحب الإلهي ، فهذه الأبيات في ظاهرها غزل عذري خالص تصور المعاناة والشوق للقاء المحبوب ، وينقل صدق الشعور والمحبة التي يكنها الشاعر لمحبوبته ، إلا أن باطنها حب إلهي يبين هذه العلاقة القائمة بين العبد وربه ، لذلك حاول الشاعر تفسير هذه المحبة من خلال هذه الأبيات الغزلية في قوله :

وَدَّعْتُ قَبْلَ الهَوَى رُوحِي لِما نَظَرَتْ ... عَيْنَايَ مِنْ حُسنِ ذَاكَ المَنْظَرِ البَهِجِ

للهِ أَجْفَانُ عَيْنٍ فِيكَ سَاهِرَةٌ ... شَوْقًا إِلَيْكَ بِالغَرَامِ شَجِ

وَأَضْلُعٌ نَحِلَتْ كَادَتْ تُقَوِّمُهَا ... مِنَ الجَوَى ، كَبِدِي الحَرَّى مِنَ العِوَجِ

وَأَدْمُعٌ هَمَلَتْ لَوْلاَ التَّنَفُّسُ مِنْ ... نَارِ الهَوَى ، لَمْ أَكَدْ أَنْجُو مِنَ اللُّجَجِ

وَ حَبَّذَا فِيكَ ، أَسْقَامٌ خَفِيتُ بِهَا ... عَنِّي تَقُومُ بِهَا عَنِ الهَوَى حُجَجِي[1]

لقد أبدع ابن الفارض في نسج هذه الرموز التي شبعها بدلالات تعكس نظرة الشاعر الصوفية التي تحدد حبه الإلهي ، فالشاعر يتلاعب بالألفاظ التي تتخللها مجموعة من الرموز التي تثري المعنى الدلالي المستوحى من المعجم الغزلي العذري الذي يجسد لوعة الفراق ومرارة البعد وألم الحب والهجر ، فالشاعر يتكبد معاناة الهوى التي تبقيه أسير محبوبته ، حيث لا يفكر في أحد سواها ولا يهمه إلا وصلها الذي لا يتم إلا بالمرور على هذه المحن وتجاوزها .

وتعددت الألفاظ التي تدل على الحب الإلهي من خلال المعجم الذي وظفه الشاعر في هذه الأبيات ، فالمتتبع لهذه القصيدة كاملة يلاحظ تكرار الشاعر لكلمة الهوى ست مرات ، فهذا التكرار الرهيب لهذه اللفظة يعكس معانات الشاعر جراء ألم البعد والفراق ؛ لأن الشاعر بلغ أغلى درجات الحب التي أنسته التفكير في كل شيء عدا الحلم بوصل محبوبته ، وهذا التكرار دليل على إصرار الشاعر لنيل مراده وتحقيق حبه الإلهي .

حاول الشاعر تفسير الحب الإلهي بالغزل لنقل التجربة المشابهة بينه وبين الشعر الصوفي لما يختص به هذا اللون ،« لذا يمكن القول أن موضوع الغزل في القصيدة الصوفية وعلى عكس الرموز الأخرى يجمع البعدين : بعد الحضور وبعد الغياب [2]» وهذا ما يعكس صورة ابن الفارض في هذه القصيدة الذي استند عليه كمرجع ثابت .

بين الشاعر شدة تعلقة بمحبوبته فمن علامات الحب كتمان السر وعدم الإفصاح عما يجول في خاطره ، إلا أن الشاعر كسر القاعدة وصرح بحبه لخالقه عز وجل ، حيث رمز إلى هذا الحب بهذه الألفاظ الغزلية التي تبدو في ظاهرها من خلال البنية السطحية حبا بين امرأة ورجل إلا أن باطنها يحيل إلى بنيتها العميقة التي تفسر حبه الخالص لله سبحانه وتعالى .

لقد أفرط الشاعر في تكرار كلمة الهوى كالمجنون الذي يعيد دائما نفس العبارات ؛ لأن الشاعر فقد السيطرة على أحاسيسه فلم يستطع كبح وجدانه ما حتم عليه البحث عن ألفاظ غزلية ، لذلك حاول التشبث بهذه الفكرة الروحية التي يمتاز بها المتصوفة ، لذلك « ينتقل المحب بهذا التعلق إلى صفة المحبوب وهو سار في جميع المقامات والأحوال [3]» فاجتهاد الشاعر لتحقيق هذه الغاية النبيلة نابع من التجربة الصوفية التي تبلور توجهه الديني في قالب غزلي محض .

حضور رمز المرأة لم يكن بمحض الصدفة كون الشاعر يضرب مثل حبه الإلهي للخالق بقصص العشق التي سلفت عصره « فالغزل الصوفي غزل بتجليات عديدة لحقيقة واحدة وبأسماء مختلفة لمسمى واحد ، فضلا عن كون هذا الغزل رمزا وتلميحات للأسرار الصوفية الساطعة وحيلة فنية لوصف حب العبد لربه ، وصفا أدبيا يحاكي الشعور الذاتي للعبد وفرديته[4] » وهذا ما لمسناه في شعر ابن الفارض الذي أعطى الغزل بعدا خاصا بتوظيف رمز المرأة في قالب يشوبه الغموض .

الشاعر في هذا التصوير يحاول إبراز العلاقة بين العبد والمعبود ، فالحب الذي نشأ بينهما فوز بالآخرة ونجاة من العقاب « فالقول بأن المسألة محسوسة مسبقة وبصورة لا رد فيها من خلال التدبير الإلهي ، لابد

أن يؤدي حسب هذا الرأي إلى فتور إرادة الإنسان وتقاعس جهوده الأخلاقية ووهن همته وسعيه بخوف وفزع من أجل النجاة يوم الحساب [5]» الذي يبقى مطمع الصوفي وهدفه الأسمى ألا وهو الحب الإلهي .

وبالحديث عن التكرار نلاحظ أن الشاعر كرر كلمة الغرام خمس مرات والذي يمثل أعلى درجات الحب ، فالشاعر مرتبط بتحقيق غايته التي لا تكتمل إلا بالوصول إلى التجلي ، فهو يصور وجده وعشقه للذات العليا من منطلق مادي متمثل في الغزل العذري ، إلى تجلي محسوس متعلق بالذات الإلهية موضوعه الحب الإلهي ،« وبذلك يختلق الشاعر المرأة خلقا جديدا عن طريق إفراغ المرأة من دلالتها المادية ثم شحنها بالدلالات الروحية الجديدة [6] » في قالب مفرداته غزلية تعكس هذه العلاقات .

هذا التكرار لكلمة الغرام يفسر درجات التفاوت في الحب وفي المكانة التي يصل إليها المحبوب في قلب العاشق ، فمن يحب الله من أجل النعم التي أنعمها عليه ليس بدرجة « من يحبه لذاته ، لأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته ، فأنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه ، فهذا و أمثاله هو سبب تفاوت الناس في محبته ، والتفاوت في المحبة هو سبب تفاوت الناس في محبته وهو السبب للتفاوت في سعادة الآخر[7]» لذلك حاول ابن الفارض الارتقاء إلى هذه المرتبة من خلال كشف حبه والتصريح به الذي تجسد في تكرار لفظة الغرام التي تدل على شدة حب الشاعر للخالق عز وجل وتعلقه به قصد الفوز بالجنة .

كما كرر ابن الفارض كلمة القلب ثلاث مرات ، وهذا للدلالة على التجربة العاطفية التي يمر بها الشاعر التي ترمز إلى الذات العليا ، فالحب مركزه القلب ، لذلك اختار الشاعر هذا اللفظ حتى يعكس الدلالة المثلى والتي تختزل المعاني الحقيقية لإدراك الغاية من وراء هذا الحب ، وهذا لكون تجربة الشاعر تجربة روحية ، لذلك تجاوز العقل الذي تجردت منه قصيدته وارتكز على القلب ؛ لأن حدوده مطلقة على عكس العقل الذي يخضع لقوانين تمنعه من تجاوز بعض الأفكار ، « والمحبة اسم جامع لعدد من الصفات عند ابن عربي ولذلك نراه يوحد الهوى والحب والود والعشق في عاطفة لها طبيعة واحدة تختلف بالصفات فتتغير عليها الأسماء [8] » والغاية واحدة على الرغم من التعدد في الرموز والإشارات .

كما ذكر ابن الفارض كلمة الحب ثلاث مرات في القصيدة كاملة ، فحاول نقل عواطفه وتجربته الشعورية من حيزها الضيق إلى فضائها الواسع ، معتمدا في ذلك على قوة الرموز التي تحمل معاني الحب الصادق ، فهذا التكرار دليل على تشبث الشاعر بالفكرة التي يحاول تجسيدها ، ورسم صورة لها في الواقع ، بالرغم من طابعها الروحي الذي يميزها عن بقية التجارب ، إلا أن هذا الحب الذي ينبع من المعجم الشعري الغزلي لا يمثل أعلى درجات الحب عند الشاعر ؛ لأن الشاعر يفسر حبه الإلهي من هذا المنطلق الذي لا يمكن مقارنته بالحب الإنساني .

فرؤية الشاعر رؤية صادقة تصور معاناته وآلامه ؛ فالحب بحلاوته وبمرارته أيضا ، فالسعادة لا تتحقق تلقائيا وإنما على المحب السعي وراءها لإدراكها وهذا ما يتماشى مع طبيعة الشاعر التي تعكس جهده ومثابرته للفوز بيوم الآخرة ، وتحقيق الرغبة التي يهدف إليها الشاعر في تجربته الصوفية .

وشح ابن الفارض قصيدته بباقة من الرموز التي « تبدو بمثابة الالغاز و الألغاز ضغط يمارس على المتلقي ، ما دام يستهدف حركة التشابه والإيضاح التي كانت القدر المشترك الذي يدور في فلكه الإبداع من حيث تجسد فعل الاستغراق في حب الله حد الاستنزاف [9]» فهذا التصوير يشير إلى الزاد المعرفي واللغوي الذي يتمتع به الشاعر حيث استطاع نقل هذه التجربة في حلة أدبية مفعمة بالدلالات .

ركز الشاعر على عنصر الشوق في قصيدته ، حيث ذكرها ثلاث مرات ، فهذا الحنين النابع من البعد والألم ، يفسر الحالة النفسية للشاعر الذي حاول تجاوزها من خلال اصراره على التقرب من الخالق .

الشوق يصور لهف الشاعر للقاء ربه ، وهذا نابع من العلاقة القائمة بين العابد والمعبود ، وهذا ما يماثل التجربة الإنسانية التي تلخصها بعض القصائد الغزلية التي تقدر طابع العلاقات ،« لرمز المرأة في الشعر الصوفي والذي تم فيه المزج بين الحب الإنساني والحب الإلهي [10]» فالعاشق يصارع الوقت الذي يفصله عن لقاء محبوبته ، فيصيبه الأرق وهذا ما يعكس التجربة الصوفية القائمة على التصور ، فابن الفارض يماثل نفسه بالعاشق الذي يكابد الهموم و يقاسي ألم البعد والفراق لنيل مبتغاه الذي يتحقق بالحب الإلهي .

من الألفاظ التي شكل بها ابن الفارض قصيدته كلمة القلب التي كررها ثلاث مرات كاملة وهو ما يوحي بطابعها الغزلي الذي قامت عليه والتي نالت حصة الأسد مقارنة بحضور الطبيعة و الخمرة ، فتوظيف الشاعر لرمز المرأة والذي أعطاه أشكالا متعددة من الرموز بين الشوق ، الغرام ، القلب ، الهوى ، المحب ، غيّر من منحى القصيدة في طابعا الدلالي الذي يعكس التجربة الصوفية التي تمتاز بغموض معانيها وتشكل ألغازها ، « فهذا الغموض الذي يرقى لحد الرهبة الساكنة مقصود ومتعمد لخدمة الغرض الأصيل في القصة ، ومن هذا ألوان التصوير في القرآن [11]» فالقصيدة الغزلية المشكلة لعناصر القصة التي ترتبط بالعقدة المتمثلة في في المعاناة والشوق للقاء الحبيب ، أما الحل فينجر عن النهاية السعيدة وتحقيق الحب الإلهي .

يعكس الشاعر طبيعة العلاقة بينه وبين الخالق عز وجل فيصور اللوم والمعاتبة في هذا البيت قائلا :

وَابْيَضَّ وَجْهُ الغَرَامِ فِي مَحَبَّتِهِ وَاسْوَدَ وَجْهُ مَلَامِي فِيهِ بِالحُجَجِ [12]

ابن الفارض في هذا البيت يقابل بين صورتين ، الغرام واللوم ، الأبيض و الأسود ، فالغرام في تصور الشاعر تجربة منبثقة من وجدانه تعكس سر وجوده في الحياة الدنيوية ، فهو يجد لذة في الحب لأنه طريق إلى الثواب ومنجاة من العقاب ، لذلك أدرك نور العبادة التي تعكس ملامح وجهه في صورة البياض ، إلا أن هذه العبادة قاصرة فالكمال للخالق عز وجل ، فهذا التقصير في أداء المناسك الدينية فتح ثغرة للوم الشاعر الذي لم يؤد واجبه على أكمل وجه ، ما جعله يحدث تقابلا بين الصورتين ، فالغرام يشير إلى دلالة النور والسير في السكة الصحيحة التي توجهه إلى نيل الآخرة ، أما اللوم فهو عقاب لتقصيره في أداء عباداته كما انه حافز للشاعر لترتيب أخطاءه والتوبة إلى الله .

لقد أجاد ابن الفارض ربط العلاقة بين الرمز ودلالته التي صورت تجربته الصوفية ونقلت التوجه الديني الصوفي فانعكس ذلك على الزاد اللغوي والمعرفي الذي اكتسح هذه القصيدة ، فالقارئ عند ملاحظته لهذه الأبيات يتيقن في البداية أنها قصيدة غزلية تصور علاقة الرجل بالمرأة ، إلا أنه يصطدم بالدلالة الخفية التي تتشكل عن طريق الألغاز التي تحملها مجموعة من الرموز .

2- رمز الخمرة :

يلجأ ابن الفارض في أغب قصائده لرمز الخمرة وما تحمله من دلالات لتصوير الغيبة والفناء ؛ لأن «التصوف يمثل مرحلة راقية من مراحل تطور الفكر الديني ، حتى تتدخل القوى العقلية في إثبات قدرتها على الإدراك إلى جانب النص الديني[13] » انطلاقا من الحضور والغياب في رمزية الخمرة .

لم تنل الخمرة نصيبا وافرا من حيث الحضور في قصيدة مابين معترك الأحداق ، فابن الفارض صاغ بعض الألفاظ التي نصنفها في معجم الخمريات كقوله :

وَفِي الْتِثَامِي ثَغْرَ الكَأْسِ مُرْتَشِفًا ... رِيقَ المُدَامَةِ فِي مُسْتَنْزَه فَرِجِ

لَمْ أَدْرِ مَا غُرْبَةُ الأَوْطَانِ وَهُوَ مَعِي ... خَاطِرِي أَيْنَ كُنَّا غَيْرُ مُنْزَعِجِ

فَالدَّارُ دَارِي وَ حِبّي حَاضِرُ وَمَتَى ... بَدَا فَمُنْعَرَجُ الجَرْعَاءِ مُنْعَرَجِ

لِيَهْنَ رَكْبٌ سَرَوا لَيْلًا وَأَنْتَ بِهِم ... بِسَيْرِهِمْ فِي صَبَاحٍ مِنْكَ مُنْبَلَجِ

فَلْيَصْنَعِ الرَّكْبُ مَا شاءوا بِأَنْفُسِهِم ... هُمْ أَهْلُ بَدْرٍ فَلَا يَخْشَونَ مِنْ حَرَجِ [14]

شكل ابن الفرض مجموعة من الدلالات في باقة من الرموز ، واستخدمها بأسلوب متناسق وألفاظ مترابطة منسجمة ، عكست نظرة الشاعر إلى الخمرة التي يرمز لها بالفناء والغيبة ، لقد أشار الشاعر إلى

سكره بلفظة التثامي والتي وإن دلت على رمزية الغزل إلا أنه تمكن من نقلها في حقل الخمرة بأسلوب سلس مازج بين هذين الرمزين ، فالالتثام يدل على الشرب ولكن ببطء شديد ، كونه يؤدي إلى سكر لا متناهي ويضفي على النفس نشوة ما بعدها نشوة ،« وهكذا فالسكر إذن هو انتشاء الصوفي (المحب) بمشاهدة جمال المحبوب ومطالعة تجليته في الأعيان [15]» فتجعل الشاعر يغيب عن مفاتن الدنيا ليبحث عن ثواب الآخرة في مشاهدة الجمال .

وتقترن هذه الرموز بالتجربة الصوفية التي تضفيها هذه الدلالات على التوجه الفكري لابن الفارض الذي حاول تأسيس هذه الازدواجية من خلال تصنيفه لهذه الحقول الدلالية المشبعة بكتلة من المعاني ، فالشاعر يصور درجة فنائه التصاعدية بالحديث عن الالتثام في إشارة واضحة لطبيعة سكره ، فهذا الالتثام الذي يمثل مستوى من مستويات الشرب ارتقى بالشاعر إلى الوصول لدرجة الغيبة والفناء ، لذلك أخرج ابن الفارض هذه الألفاظ من دلالاتها الضيقة التي تعكس صورتها الملموسة المادية إلى دلالاتها العميقة التي تصور إيحائها المحسوس بالعودة إلى قيمتها الروحية .

واصل ابن الفارض التجانس بين رمز المرأة و الخمرة حيث أشار إلى الثغر الذي تغنى به الشعراء الجاهليون فربطوه بقصائدهم الغزلية ، إلا أن الشاعر نقله من هذا المفهوم إلى معجم الخمرة حيث قال: " ثغر الكأس " فقد جعل للكأس فما يساعده على شرب خمرته التي يجد فيها حلاوة ونشوة عند فنائه ، فيصور غيبته عن الحضور الدنيوي للوصول إلى أعلى درجات السكر الصوفي الذي يمثل صورة ثانية لهذا التشاكل المادي ، فالشاعر متشبث بقيمه الدينية حتى وإن أشار إليها بمعجم الخمرة الذي يلقى نفورا من قبل الوازع الديني ، إلا أن الظاهر لا يعكس هذه الشخصية لكونها مبنية على الرمز الذي يحمل دلالة غير دلالتها السطحية .

بين الشاعر في هذه الأبيات تأثير المحبوب الذي يشبه تأثير الخمرة المسكر ، وهذا ما أنشأ علاقة بين العالم الحسي والمعنوي ، فالكأس التي شرب منها الشاعر وأدت به إلى السكر حتى الثمالة ، ليست كالأواني المتداولة عند الخمارين وفي الحانات ، هذا التماثل الشكلي شبع الرموز وحملها دلالتين : دلالة سطحية يدركها العام والخاص ، ودلالة عميقة تغوص بأفكار المتلقي وتتلاعب بتصوراته الذهنية التي تخلفها ألغاز هذه الرموز ، وما يزيد في الأمر تعقيدا تداخل المعاجم الدلالية فيما بينها مما انعكست على حالة المتلقى في فك شفراتها وهذا باللجوء لقراءتها عديد المرات .

الغموض سمة رئيسة في قصيدة ابن الفارض تجعل المتلقي بين مد وجزر لإدراك ماهية الدلالة وضبط حدودها ، لذلك « يأخذ الصوفية الألفاظ الخمرية قوال جاهزة لهم للدلالة بها على أحوالهم الصوفية العالية وقت الحضور أو الخروج منه ، وذلك لما بين الدلالتين من شبه كبير والتباس إحداهما

بالأخرى إلى درجة عدم التميز بينهما ، إلا بالمنزلة التي تنزلت بها المفردات من القصيدة والسياق الذي يؤطر القصيد[16]» ما جعل من قصيدة ابن الفارض روحية على شاكلة القصيدة الجاهلية .

لجأ الشاعر إلى تكثيف معاني الرموز التي شبعت بطاقات دلالية عكست التجربة الصوفية التي يعيشها الشاعر ، لذلك فإن ابن الفارض سار على نهج سابقيه من الشعراء المتصوفة في حسن انتقاء الرموز وتوظيفها ، ليحمل الدلالة المثلى التي تسقى من كيان رؤى الشاعر .

كما أثرى الشاعر معجمه الذي يصب في حقل الخمريات بألفاظ متلونة كالارتشاف ، ريق ، المدامة ، حيث شكل تجانس إبداعي وفق توظيفها في رموز حملت دلالات الغيبة والفناء ، « وهذه الغيبة عن الأشياء في مقدمة القول بألا موجود إلا الله حتى يصحو من سكره شهد الأشياء كلها قائمة لله [17]» ، فقد بين ابن الفارض هذا المفهوم من خلال الصيغة التي تم بها الطرح للرموز المشبعة بالمعاني .

تتابع هذه الألفاظ وانسجامها دليل على تشرب ثقافة الشاعر من قاموس الخمريات الذي ألفه العرب ، فقد استطاع الشاعر أن يصور حالة السكر بوصف مستلزماته من الأواني في إشارة إلى الكأس التي رمز بها إلى هذا التصور وطريقة الشرب التي تختلف من شخص لآخر ، فالشاعر ينقل طبع شخصيته الهادئة التي ترتشف الخمر بهدوء وسكينة ، ليغيب عن مفاتن الدنيا بعد تأمله في جمال الخالق الناتج عن الدهشة لهذا التصوير، فيبين فناءه بشكل جزئي ثم ينتقل تدريجيا لإدراك أعلى درجات الفناء والغيبة .

لم يذكر الشاعر حالة صحوه بعد سكره وهذا لنفسه الميالة إلى الفناء وعدم الخروج من هذه المتعة الدينية التي تحقق غاياته في التأمل ، لذلك حاول ابن الفارض التشبث بهذه المرحلة التي تجسد تجربته الصوفية والتي يتجاوز بها البنية السطحية المتمثلة في العلاقات التركيبية التي يحملها ظاهر الدلالات إلى البنية العميقة التي تؤول إلى معاني حقيقية تحملها هذه الرموز ، فالصحو من منظار الشاعر فاصل يحد من علاقة الصوفي بربه ويقتلعه من قيمه الدينية المثلى ليعود به إلى عالم الدنيا ومفاتنها التي ينبذها الصوفي .

صور ابن الفارض الغيبة والفناء نتيجة تأثره بالحب الإلهي فربطها بغربة الأوطان ، حالة السكر عند الشاعر مماثلة في التصوير الغريب البعيد عن أهله وذويه يغيب في ذاته ويبحث عن طيات الفناء فيجد نفسه في عالم غير عالمه وكأنه جديد في هذا الكون ، هذه الغربة والعزلة فتحت للشاعر الرغبة في لقاء الخالق عز وجل ، فالربط بين الغربة والسكر كشف عن هذه العلاقة المبنية على أساس المحبة ، الشوق والحنين للأهل والوطن ، لكن الفرق في التماثل يكمل في أن الغريب إذا عاد إلى وطنه أصبح جزء منه

فيتجرد من معنى الغرابة ، والشاعر في هذه المرحلة لا يتمنى الخروج من هذه الغيبة والفناء ، فالصحو في قاموسه عقاب لأنه يذكره بمفاتن الدنيا وملذاتها وهي التي تتنافى مع القيم الدينية للشاعر.

ينتقل ابن الفارض في تصوير الفناء في المماثلة بين الغيبة وأهل بدر لذلك قارن حلاوة النصر في إشارة لمعركة بدر والتي انتصر فيها المسلمون على الكفار ، ولذة السكر التي تجسد الغيبة عن الذات يبين الشاعر من خلالها هذا التجانس في التشبيه تجاوزه لملذات الدنيا ومفاتنها ، وهذا ما ولد لديه نشوة ما بعدها نشوة لقهر النفس التي تميل إلى المعاصي والشهوات ، وهذا التماثل حمل هذه الأبيات قيم فنية استطاع الشاعر أن يشربها قصصا تاريخية تمجد الإسلام والمسلمين .

أبدع الشاعر في انتقاء الرموز وشحنها بطاقات دلالية عكس الثورة اللغوية والفكرية التي يتمتع بها الشاعر ، كما فسرت تأثره بالقصائد الخمرية التي مازجها في دلالة المعاني التي عكست التجربة الصوفية لدى ابن الفارض والتي تبلورت في كتلة الرموز التي بنيت عليها هذه الأبيات ، فكانت بمثابة المرآة التي تعكس هذه التجارب المعرفية التي استثمرها الشاعر في رصد هذه الأفكار بقيم فنية وجمالية القت بظلالها على هذه القصيدة .

3- رمز الطبيعة :

شكل ابن الفارض قصيدة مابين معترك الأحداق بكتلة من رموز الطبيعة في قالب تصويري متناسق كقوله :

مَا بَيْنَ مُعْتــَرَكِ الأَحْــدَاقِ وَالمُهَجِ أَنَا القَتِيلُ بِلَا إِثْمٍ وَلَا حَــرَجِ [18]

وَارْحَم البَـرْقَ فِي مَسْــرَاهُ مُنْتَسِــبًا لِثَغْرِهِ وَهُوَ مُسْتَحْيٍ مِنَ الفَلَجِ [19]

وَفِي نَغْمَةِ العُودِ وَالنَّايِ الرَّخِيمِ إِذَا تَأَلَّفَا بَيْـنَ أَلْحَـانٍ مِنَ الهَــزَجِ [20]

يبين ابن الفارض في هذه الأبيات وحدة الألوهية ، فقد رمز لذلك بالبرق في سرعته والذي يكون مصحوبا بالضوء الذي ينير ولو بلحظة قصيرة أطراف الكون ، فالخالق عز وجل سريع العقاب والحساب ، لأنه أنار للإنسان طريق الحق وأضاء له دربه وسلوكه الديني ، فهذا الاستئناف بين سرعة البرق وضوئه جعل الشاعر يرمز إلى وحدة الوجود بالبرق الذي اختاره كدلالة على هذا التصوير.

مزج الشاعر في هذه القصيدة بين وحدة الوجود والحب الإلهي ، فقد جانس بين الطبيعة معبرا عنها بالبرق ورمز المرأة مفصلا له بالثغر المتباعد في الأسنان الذي أشار إلية بالفلج ، لقد ربط ابن الفارض هذه العلاقة المتوازنة بين الطبيعة والمرأة في هذا التصوير الفني ، حيث بين أن البرق بسرعته وضوئه يكون

مصاحبا للمطر الذي يرمز من خلاله الشاعر إلى الحزن والألم الذي يلازمانه لإفراطه في الحب الإلهي الذي لا يمكن كشفه ولا حتى تخيله ، فالبرق في نظر الشاعر يصيب من شاهده بالدهشة وربما بالفزع الناتج بين التمازج في السرعة والضوء .

ذكر الشاعر البرق في قصيدته لكنه لم يذكر الرعد الذي يكون ملازما له ، حيث يتجلى هذا التصوير في شخصية ابن الفارض الذي حاول تشكيل هذه النظرة الصوفية من منطلق التصوير القائم على ربط عناصر الطبيعة « كما عبر ابن الفارض عن وحدة الشهود ولقد عاين الشاعر محبوبه الحق في الطبيعة وشاهده متجليا في تعييناتها ، ومظاهرها بهذه الوحدة الشهودية [21] » فارتكز على مظاهر الطبيعة التي تصور كيانه الشعوري وتجربته الصوفية التي استقاها من هذه المناظر التي نظم بها قصيدته وشبعها بكتلة من الرموز مضفية دلالات واحدة ألا وهي وحدة الوجود لوحدة الفاعل .

الرمز ينقل الصور و الأحاسيس التي تختلج الشاعر وما يعتريه من ضوابط تجسد علاقته بالطبيعة « فمن قلب هذه العلاقة الخصبة بين الشعور الإنساني والوجود المطلق ، وهو يفض نفسه في الغيبيات ترتب الأشكال الرمزية في تراث الثقافة الإنسانية وتحيل هذه الأشكال إلى رغبة الوعي الإنساني في التعبير عن الحقيقة [22] » التي تبقى غامضة في الصياغة الشعرية بفعل الغموض الذي تولد من رحم الدلالات .

يطفو على سطح هذه القصيدة الغموض الناتج عن تشعب المعاني التي تحملها هذه الرموز ، فقد انتقى الشاعر وبعناية ألفاظا مكونة لأشكال الطبيعة التي مازجها بالطرح الصوفي الذي يحمل أبعاد روحية ، حمل ابن الفارض الرمز دلالات متعددة لتصوير هذه التجربة الصوفية ، فالمتتبع لهذه الأبيات لا يدرك طابعها الجوهري من القراءة الأولى ، لأنها تحمل دلالات عميقة تصطدم مع أفق توقع المتلقي لها .

يبين ابن الفارض الحركة المؤقتة لرمز الطبيعة بحديثه عن البرق الذي يشمل حقلا زمنيا ضيقا ، إلا أنه يتجاوز ظاهره الملفوظ ؛ لأن البرق بسرعته وضوئه يؤثر على نفسية الإنسان ويذكره بمعجزات الخالق عز وجل التي توحي إلى وحدة الفاعل ووحدة الوجود ، فنظرة ابن الفارض إلى الطبيعة نظرة عميقة لها أبعاد روحية لازمته في جميع قصائده التي صور فيها مظاهرها والتي تخللتها مجموعة من الرموز ذات إيحاءات عميقة تفسر البعد الصوفي لدى ابن الفارض الذي ارتقى بالرمز في قصائده الصوفية أعلى المراتب ، حيث حمل اللفظ الواحد مجموعة من الدلالات بتكثيف معانيها والإيجاز في رموزها .

أبيات ابن الفارض تصور وحدة الوجود لوحدة الفاعل والتي تشير إلى عناصر الطبيعة القائمة على نمط هذا التشكيل فانتقال الشاعر بين هذه المظاهر دليل على تأثره بها فهي تعكس بعده الديني التي تثمنها قصائده كقوله في هذا البيت

وَإِنْ ضَلِلْتُ بِلَيْلٍ مِنْ ذَوَائِبِهِ أَهْدَي لِعَيْنِي الهُدَى صُبْحٌ مِنَ البَلَجِ [23]

الشاعر في هذا البيت يقابل بين الجنة والنار حيث يرمز بالليل إلى الضلالة وإلى الصبح بالهدى ، إلا أن دلالة الليل عند الشاعر تكمن في المعاناة والسهر والسكون الذي يبين علاقته مع خالقه ، فالليل تسكن فيه عناصر الطبيعة وتتجلى فيه سمات الهدوء ، ليكون العابد مناجيا لربه دون تشويش عن بقية الكائنات الأخرى ، كما يرمز الصبح إلى انفراج الأزمة الدنيوية التي لا يقصدها ابن الفارض ؛ لأنه يريد بهذا الصبح نيل الثواب والأجر بعد معاناة من المناجاة وسهر الليل وقهر النفس من الراحة وملذاتها .

لقد أجاد ابن الفارض هذا التركيب المتناسق والذي أعطى دلالة الطبيعة بعدا جديدا ، يحتمل تعدد القراءات لانتقاله من البنية السطحية التي توحي إلى المعنى الظاهري إلى البنية العميقة التي تدل على المعنى الباطني الذي يشير به الشاعر في قصائده إلى المعاني الأصلية المشكلة لأبعاد الصوفية التي تتميز بها الدلالات مما أضفى على طبيعة الرمز قيمة جمالية وفنية من خلال هده الأبعاد التي تعكس هذا التصور القائم على ثنائية البنية العميقة والبنية السطحية .

وبين ابن الفارض في هذه القصيدة علاقة الصوفي بعناصر الطبيعة التي تفتح له الأبواب لملاقاة خالقه ، التي ترمز إلى وحدة الوجود لوحدة الفاعل وهذا ما يوضحه في قوله :

وَفِي نَغْمَةِ العُودِ وَالنَّايِ الرَّخِيمِ إِذَا تَأَلَّفَا بَيْـنَ أَلْحـَانٍ مِنَ الهَـــزَجِ

وَفِي مَسَـارِحِ غِـزْلَانِ الخَمَائِـــلِ فِي بَرْدِ الأَصَائِلِ وَ الإِصْبَاحُ فِي البَلَجِ

وَفِي مَسَاقِطِ أَنْدَاءِ الغَمَـــامِ عَلَى بِسَـاطِ نُورٍ مِنَ الأَزْهَارِ مُنْتَـسَجِ

وَفِي مَسَـاحِبِ أَذْيَالِ النَّسِـــيمِ إِذَا أَهْدَي إِلَيَّ سُحَيْرًا أَطْيـَــبَ الأَرَجِ [24]

استطاع ابن الفارض أن يشكل مظاهر الطبيعة في هذه الأبيات المنسجمة التي تحمل قيما فنية من خلال الرموز التي حملت دلالات ربطها الشاعر بأشكال الطبيعة التي تعكس هذا التصور بين الصوفي والخالق ، وبيّن الشاعر جمالية الألحان التي تطرب لها الآذان والناتجة عن نغمة العود والناي ، إلا أن هذا اللحن هو طرب أصيل سبّح فيه الصوفي خالقة بمجموعة من الأذكار تعكس توجهه الديني .

هذا اللحن الذي أشار إليه ابن الفارض هو الذي يقود المتصوفة إلى الفوز بالجنة والتقرب من الله سبحانه وتعالى ، فقد ماثل ابن الفارض بين لحن الدنيا الذي نجد فيه حلاوة وطراوة ترتاح له الآذان والأبدان واللحن الذي يؤدي بالمتصوف إلى نبذ هذه اللذة والتفرغ لعبادة الخالق والتجرد من هذه القيم التي تلهي الصوفي عن ذكر الله قد تعزله عن هدفه الأسمى في الوجود .

تحدث الشاعر عن صورة الحيوان التي تشكل أجزاء الطبيعة الحية ، حيث صور هذه النظرة في ثوب الدلالة الصوفية التي تخفي المعاني الحقيقية وتبرز الألفاظ السطحية « و لا يخفى أن في الأبيات رمزا على وحدة شهود المحبوب في حضرة وجود المتعين بكل ما يتجلى به من الصور الحسية والمعنوية في عالم الطبيعة ، وكلها صور مفحمة بالجمال والحس الأستطيقي المرهف الذي انكشفت بواسطته الطبيعة لعيان الشاعر بوصفها شفرة للألوهية المحاثية [25]» والتي تعكس علاقة الإنسان مع هذه المظاهر لتحديد غاية الوجود وبحث التجربة التي يهدف إليها الشاعر الصوفي في تحديد هذه الغايات التي خبأها في كتلة من الرموز.

صور الشاعر الأماكن التي يتواجد فيها الغزلان والتي تتميز بالمسالك الوعرة والبعد عن الأثر البشري الذي يهدد كيانها ، فالغزلان التي تعيش بمنئى عن الإنسان يرمز بها الشاعر إلى الوحدة في التعبد ، فالصوفي يخصص لذاته مكانا معزولا بعيدا عن أعين الناس لمناجاة خالقة حتى يبلغ قصده ، وهذا ما أشار إليه ابن الفارض من خلال حمل هذا البعد للغزال الذي يحمل صورة هذا الرمز.

رمز الطبيعة مادي يفسر حسب رأي الصوفية الجمال والذات الإلهية لذلك « ربطوا بين التغزل بالمرأة وذكر جمال الطبيعة من أجل بلوغ الجمال الإلهي وذروته [26] » ، حيث تجلى هذا التصوير في قصيدة ابن الفارض الذي مازج بين الرمزين .

هذا التصوير أضفى على القصيدة بعدا جماليا ؛ لأن الشاعر استطاع أن يعكس هذا الوجود القائم على العزلة بين الغلان والصوفي الزاهد المتعبد ، فماثل هذا الطرح في ستر الوجود للطبيعة والتجربة الصوفية القائمة على مبدأ العزلة التي تضفي على العبادة طابعا روحيا بعيدا عن الرياء ، وتمكن الشاعر من نقل هذه العناصر التي أشبعها بطاقة من الرموز تكتلت في دلالات ذات أبعاد صوفية أعطى لها ابن الفارض توجهات لغوية تحيل إلى ازدواجية إدراك المعاني المحصورة بين الرموز .

شكل ابن الفارض عناصر الطبيعة وفق الحديث عن الندى الذي يجانب الأزهار وأغصان الأشجار ، فهي تمثل في شكلها الظاهر في فصل الربيع الذي يمتاز بالتلون في مظاهر الطبيعة « وتعتبر هذه الأبيات أرق ما كتب ابن الفارض إذ لم يعنى فيها بالتوشية البديعية ولم يدرها على لغة تجريدية جافة وإنما ساقها مشربة بالرمز جياشة بالصور في لغة موسومة بطابع الوحدة الصوفية في الوجود والشهود [27]» فابن الفارض في حديثه عن الندى ، الثور والأزهار يبين توجهه الديني ؛ لأنه بلغ مرحلة راقية من التعبد والزهد ، وهذا من خلال المماثلة بين عناصر الطبيعة التي تشكل فصل الربيع ، وتنوع عباداته من صلاة وصوم وتسبيح ودعاء ، كونه أدرك النور الذي يمهد له طريق الآخرة والذي يتفتح كتفتح الأزهار التي تزداد توهجا في فصل الربيع .

كما رمز ابن الفارض إلى وحدة الوجود لوحدة الفاعل بالنسيم الذي يضفي على النفس راحة وينعشها ويبعث فيها الحيوية والنشاط ، فهو الروح الذي تتغذى منه شخصية المتصوف ، والتي تكتسب حلاوة بالذكر والتسبيح كما ولو أن الصوفي يستنشق هذا النسيم ويبث فيه روح العبادة ويقوده إلى تحقيق غاياته من سر الوجود .

أبدع ابن الفارض في قصيدته التي صور فيها عناصر الطبيعة التي حملها دلالات مكثفة من رموز إيحائية ، عكست التجربة الصوفية لدى الشاعر والتي جسدها وفق توجهه العقائدي الذي تبلور في الغموض الناتج عن توظيف الرموز التي تحمل عدة تأويلات تلزم على المتلقي البحث في طبيعة الاتجاه الصوفي الذي يجيد المراوغة من خلال براعة التصوير والدقة من انتقاء الرموز ، وهذا ما جعل من قصيدة مابين معترك الأحداق تصنف أعلى المراتب من حيث التشكيل المتناغم بين اللفظ والمعنى .

الخاتمة:

بعد قراءتنا لقصيدة ما بين معترك الأحداق لابن الفارض والبحث في دلالات الرموز توصلنا إلى :

- الرمز حركة مفصلية تبنى عليها القصيدة الصوفية خصوصا في شعر ابن الفارض .
- التماثل من حيث التصوير لرمز المرأة والحب الإلهي .
- الخمرة غياب في الحضرة الإلهية .
- الطبيعة مظهر من مظاهر الجمال .
- لا يمكن فك شفرات القصيدة الصوفية دون اللجوء إلى المناهج السياقية نظرا للانصهار بينها وبين القصائد الغزلية والخمرية .

هوامش البحث :

[1] ابن الفارض ، 2008 ، ديوان ، هيثم حلال ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، ص 75 . .

[2] حمزة حمادة ، 2009 ، الرمز الصوفي ، طبعة مزوار ، الوادي ، ط1 ، ص 52 ، 53 .

[3] سعاد حكيم ، 1981 ، المعجم الصوفي ، دار دندرة للطباعة والنشر ، بيروت ، د ط ، ص 302 .

[4] ضحى يونس ، 2006 ، القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري ، اتحاد كتاب العرب ، ص 122 .

[5] تور أندريه ، 2003 ، التصوف الإسلامي ، تر عدنان عباس علي ، منشورات الجمل ، ألمانيا ، ط1 ، ص 208 .

[6] عبد الحميد هيمة ، 2008 ، الخطاب الصوفي وآليات التحويل – قراءة في الشعر المغاربي المعاصر ، موقم للنشر ، الجزائر ، د ط ، ص 255 .

[7] مأمون غريب ، 2000 ، رابعة العدوية في محراب الحب الإلهي ، دار غريب للنشر والطباعة ، القاهرة ، د ط ، 2000 ، ص 83 .

[8] سعاد حكيم ، 1981 ، المعجم الصوفي ، ص 302 .

[9] آمنة بلعلى ، 2001 ، الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، د ط ، ص36.

[10] عبد الحميد هيمة ، 2008 ، الخطاب الصوفي وآليات التحويل – قراءة في الشعر المغاربي المعاصر ، ص206 .

[11] أحمد بهجت ، 1979 ، بحار الحب عند الصوفية ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت ، ط1 ، ص 30 .

[12] ابن الفارض ، 2008 ، ديوان ، ص 76 .

[13] ناهضة ستار، 2003 ، بنية السرد القصصي ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، د ط ، ص 20 .

[14] ابن الفارض ، 2008 ، ديوان ، ص 77 .

[15] عبد الحميد هيمة ، 2008 ، الخطاب الصوفي وآليات التحويل – قراءة في الشعر المغاربي المعاصر ، ص256 .

[16] مختار حبار، 2002 ، شعر أبي مدين التلمساني الرؤيا والتشكيل ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، ص 219 .

[17] عبد القادر أحمد عطا ، 1978 ، التصوف الإسلامي بين الأصالة و الاقتباس في عصر النابلسي ، دار الجيل ، لبنان ، ص 349 .

[18] ابن الفارض ، 2008 ، ديوان ، ص 74 .

[19] المرجع نفسه ، ص 75 .

[20] المرجع نفسه ، ص 76 .

[21] عاطف جودة نصر، 1987 ، الرمز الشعري عند المتصوفة ، ، دار الأندلس ، بيروت ،ط1 ، ص 294 .

[22] عاطف جودة نصر، 1987 ، الرمز الشعري عند المتصوفة ، ص 18 .

[23] ابن الفارض ، 2008 ، ديوان ، ص 76 .

[24] ابن الفارض ، 2008 ، ديوان ، ص 77 .

[25] عاطف جودة نصر، 1987 ، الرمز الشعري عند المتصوفة ، ص 295 .

[26] منصف عبد الحق ، 1988 ، الكتابة والتجربة الصوفية ، منشورات عكاظ ، المغرب ، ط1 ، 1988 ، ص 98 .

[27] عاطف جودة نصر، 1987 ، الرمز الشعري عند المتصوفة ، ص 295 .

قائمة المراجع :

1. ابن الفارض ، 2008 ، ديوان ، هيثم حلال ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط3 .
2. أحمد بهجت ، 1979 ، بحار الحب عند الصوفية ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1.
3. آمنة بلعلى ، 2001 ، الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، د ط .
4. تور أندريه ، 2003 ، التصوف الإسلامي ، ترعدنان عباس علي ، منشورات الجمل ، ألمانيا ، ط1 .
5. حمزة حمادة ، 2009 ، الرمز الصوفي ، طبعة مزوار ، الوادي ، ط1 .
6. سعاد حكيم ، 1981 ، المعجم الصوفي ، دار دندرة للطباعة والنشر ، بيروت ، د ط .
7. ضحى يونس ، 2006 ، القضايا النقدية في الثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري ، اتحاد كتاب العرب .
8. عاطف جودة نصر ، 1987 ، الرمز الشعري عند المتصوفة ، ، دار الأندلس ، بيروت ،ط1 .
9. عبد الحميد هيمة ، 2008 ، الخطاب الصوفي وآليات التحويل – قراءة في الشعر المغاربي المعاصر ، موقم للنشر ، الجزائر ، د ط .
10. عبد القادر أحمد عطا ، 1978 ، التصوف الإسلامي بين الأصالة و الاقتباس في عصر النابلسي ، دار الجيل ، لبنان .
11. مأمون غريب ، 2000 ، رابعة العدوية في محراب الحب الإلهي ، دار غريب للنشر والطباعة ، القاهرة ، د ط .
12. مختار حبار ، 2002 ، شعر أبي مدين التلمساني الرؤيا والتشكيل ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق .
13. منصف عبد الحق ، 1988 ، الكتابة والتجربة الصوفية ، منشورات عكاظ ، المغرب ، ط1 .
14. ناهضة ستار ، 2003 ، بنية السرد القصصي ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق .